هشاشة الأمن الإسرائيلي

الدكتور عبد الستار قاسم

10/أيلول/2003

يبرر الصهاينة الكثير من أفعالهم ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية بناء على مقولات أمنية ويصرون عليها إلى درجة أنهم جعلوا منها قضية يتمسك بها الآخرون. إنهم يرددون على المسامع باستمرار أنهم ظلموا عبر الزمن وتعرضوا للاضطهاد حيثما ثقفوا وأن كل الوعود التي انطلقت واعدة بالحرص على أمنهم والتعامل معهم بنوع من المساواة مع الآخرين لم تفلح، وأنه لم يكن من مفر سوى البحث عن وطن لليهود يكونون فيه هم المسؤولين عن أمنهم دون الاعتماد على الآخرين. وبناء على هذا يبررون تمددهم على الأرض العربية. برروا احتلال سيناء من أجل صنع منطقة عازلة بينهم وبين الجيش المصري بحيث لا يُفاجئون بهجوم، ويبررون احتلال الجولان بناء على أهميتها الاستراتيجية، وهكذا. وبسبب تركيزهم على الهاجس الأمني بات العديد من دول العالم تأخذ بتبريراتهم بمن فيهم بعض الدول العربية التي تردد في مناسبات مختلفة احترامها للطرح الأمني الإسرائيلي.

لكن لا يبدو أن هذا الأمن يمكن أن يتحقق من خلال الجغرافيا ولا من خلال المخابرات العربية التي تلاحق المجاهدين والمناضلين ولا من خلال الصواريخ والقنابل الذرية. من خلال التجربة العملية وما يتم لمسه على أرض فلسطين يبقى الصهاينة اليهود في هاجس يرتجفون خوفا وكأن المصائب تنهال فوق رؤوسهم. إنهم جبناء إلى درجة فقدوا معها الاطمئنان إلى أي شخص أو جهة. وهذا واضح في رغبتهم القوية المتواصلة في تطوير أسلحتهم الخاصة بهم مشككين حتى في نصيرهم الأعظم الولايات المتحدة الأمريكية. تمدهم أمريكا اليوم بالسلاح والمال، وماذا عن الغد؟ لا شك أن الاحتياط واليقظة ضروريتان في حياة الشعوب لكن كثرة الشك عبارة عن مرض نفسي إن لم تكن أزمة مستعصية. وربما في هذا ما يبرر ولو جزئيا عدم قدرة اليهود، بصورة عامة وليس بصورة تامة، على التعايش مع الشعوب الأخرى. إنهم أصحاب شك يدفع إلى العزلة معززين بذلك فكرة شعب الله المختار التي تعبر بحد ذاتها عن عزلة مستمرة. إنهم يتحدثون عن التطبيع مع العرب ولا أخالهم ضمن البعد النفسي الذي يتميزون به قادرين على التطبيع مع أحد. ربما يرغبون في أن يكونوا أسيادا، لكن هذا قد يتم لهم بعض الوقت لكنه لا يستمر طول الوقت.

ومن المحتمل أن هذا ما يعلل هيجان اليهود الصهاينة إعلاميا وديبلوماسيا مع كل حدث ولو بسيط يتعرض له يهودي في العالم. لقد صنعوا ضجة إعلامية كبيرة بسبب تضرر ضريح شخص يهودي بشكل بسيط من قبل عابر سبيل، وقاموا بحملة ديبلوماسية هستيرية بسبب اعتقال يهود اعترفوا لدى السلطات الإيرانية بأنهم جواسيس لإسرائيل. وهم يقومون بحملة كبيرة جدا من أجل صهاينة في أسر حزب الله متجاهلين مسألة الأسرى العرب لديهم. وواضح أن المسألة تتعدى قواعد الصراع الذي يمكن أن يحصل بين دول أو قوميات أو شعوب لتلقي ضوءا على أزمة نفسية تدفع بالصهاينة إلى الظن بأن الأمم يجب أن تُجند للدفاع عنهم وتتفهم طروحاتهم وألا تعارضهم فيما يتعلق بمتطلباتهم الأمنية.

يسمع الشخص البعيد عن الساحة الفلسطينية عن متطلبات الأمن الصهيوني لكن ربما لا يدرك مدى الهاجس الذي يعيشونه. وكوني معتقل عدة مرات لدى الصهاينة وخاضع للتحقيق مرات كثيرة أسوق أمثلة قليلة لتوضيح الصورة. رفض الصهاينة تزويد المعتقلين في النقب بملاعق معدنية لأسباب أمنية، ومنعوا المعتقلين من فتح قمصانهم صيفا لأن ذلك يلحق الأذى بالأمن الصهيوني. وتم منع تغليف أواني الماء البلاستيكية بالخيش بسبب الأمن، وكنا نضطر أن

نشرب الماء ساخنا. أما إذا أحضر أهلك طعاما علك تشبع ولو لمرة واحدة في السجن فإن أمنيتك لن تتحقق بسبب الأمن. وهكذا.

ولهذا كان تحليلي باستمرار أنه من السهل هزيمة اليهود الصهاينة وأن المسألة لا تتطلب تلك الجهود والحشود وإنما بحاجة إلى إرادة وحسن تخطيط. يذكر المتابعون للأحداث كيف التأمت حوالي ثلاثين دولة في قمة عالمية في شرم الشيخ عقب اغتيال الشهيد يحيى عياش لمناقشة ما أسموه بالإرهاب الإسلامي. قامت حركة المقاومة الإسلامية حماس عقب الاغتيال بعدد من التفجيرات الاستشهادية في المراكز السكانية الصهيونية فجن جنون الصهاينة ومؤيديهم وأذنابهم فتنادوا إلى القمة. خمس تفجيرات فقط قد يصل مجموع أوزان متفجراتها إلى خمسين كيلو غراما أدت إلى ذعر وهلع ليس فقط على المستوى الصهيوني وإنما على مستوى العالم. على الرغم من أن مجموع الأوزان لا يصل إلى وزن قذيفة مدفع ميداني واحدة، ولا يطاول قذيفة واحدة من طائرة ف 16.

هذا هو حجم إسرائيل الحقيقي. إنها لا تساوي خمسين كيلو غراما من الديناميت واضطرت أن تستصرخ العالم ليهب لنجدتها. إذن أين المشكلة والعرب يملكون بالتأكيد أكثر من هذا الوزن من المتفجرات؟ طبعا المشكلة بالتأكيد في الإرادة وفي إرادة العديد من العرب الرسميين الذين يمنعون الآخرين من ممارسة إراداتهم في مواجهة إسرائيل.

مع قوة إرادة المقاومين الفلسطينيين تقف إسرائيل وأناسها في ذهول وشحوب وخوف وهلع. إنهم يتجرعون الرعب حتى حجز لعابهم في أفواههم فلا تبتل منهم الحناجر. لكن الآن لا يوجد مؤتمر دولي يهب للنجدة، فقد تغيرت المعادلة. صنع مقاومو الحركة الإسلامية من حماس والجهاد ومقاومو حركة فتح مناخا جديدا لا يفتح مجالا لعرب يشاركون علنا في التآمر على المقاومة، ولا يجعل من المفاوضات وسيلة يمكن اللجوء إليها بدون مشاعر ذاتية من العار أو لعنات قوية وكبيرة من قبل الشعوب.

تتخذ إسرائيل احتياطات أمنية قوية جدا ومكثفة لم يسبق أبدا لأي دولة أن اتخذتها. إنها وجمهورها يعيشون حالة هستيرية إلى درجة الهواجس وكوابيس اليقظة. إنهم يرجفون من نسمة ريح تحرك عيدان عشب، ومن إطار عجل سيارة ينشق، ومن خشخشة كيس بلاستيكي داعبته يد بائع، ومن موج بحر يضرب صخرة، ومن صوت علبة كوكا كولا تنفتح، ومن طرقات حذاء شخص يمشي في الشارع مسرعا. تنتشر قوى الأمن المختلفة في كل ركن وزاوية وبناية وحارة، وكل فرد منها يتلقى كل يوم مائة تنبيه أو ملاحظة من الناس حول أشخاص مشبوهين أو أجسام وحركات مشبوهة. تصل وساوسهم الأمنية إلى درجة الشكوى من نظرة عفوية من عابر سبيل أو من حركة يد يظنها أحدهم أنها غير عادية، أو من شخص سقط قلمه على الأرض فانحنى يلتقطه.

اليهود الصهاينة يهربون الآن من المستوطنات في الأرض المحتلة عام 1967 ومن الأرض المحتلة عام 1948. نحن لا نملك الإحصائيات الدقيقة حول حجم الهروب لكنه يتم يوميا. وإذا استمر العمل الفلسطيني المقاوم فإن الهاربين سيجدون لأنفسهم أعمالا تجعلهم يستقرون في بلاد أخرى دون التفكير في تجديد عدوانهم على الشعب الفلسطيني. لقد غزا الصهاينة فلسطين بحجج عدة على رأسها حجة الأمن لليهود المضطهدين. جاءوا هنا يقيمون أمنا على آلام الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وها هم يحصدون نتائج سوء صنيعهم. ظنوا أن الفلسطينيين والعرب سيبقون متخلفين إلى الأبد وأن زعماء عرب عملاء سيضمنون لهم استمرار سياساتهم من خلال إخضاع الشعوب، لكن الغلبة في النهاية للتاريخ. لا تبقى الأحوال على ما هي وكل شيء قابل للتغيير والتبديل والباقي وجه الله. والآن تواجه إسرائيل مأزقها الأمني ودائرة الصحوة العربية والإسلامية لم تكتمل بعد، فكيف يكون حالها إذا استمر الوضع العربي والإسلامي في التحسن؟

لكن يجب ألا يدخل الغرور إلى نفوسنا وألا نطمئن إلى أن الدائرة قد اكتملت حول عنق العدو، فالمشوار ما زال طويلا. العرب والفلسطينيون سيدفعون التضحيات الجسام، والعدو يملك وسائل قتالية ضخمة ومتطورة يوقع بها أذاه. سيضرب العدو أشخاصا وسيعتقل، وسيهدم البيوت ويطرد الناس. وسيدخل القرى والمدن بالدبابات وسيقصف المؤسسات بالطائرات وسيحاول التضييق على العرب والفلسطينيين اقتصاديا بالمزيد، وعلينا أن نتوقع قطع الكهرباء في يوم ما وحرماننا من المياه. الانتقاص من طاقات العدو من سوء التخطيط بالضبط كما المبالغة فيها. ولكل منا أن يتذكر أن الفلسطينيين ليسوا عاجزين عن الرد بالمثل وربما بما هو أكثر قسوة. وعلينا أن نتذكر دائما أننا نألم وهم يألمون كما نألم ولكننا نرجو من الله ما لا يرجون.

تعي إسرائيل محنتها الآن على الجبهة الشمالية وقلة حيلتها في مواجهة حزب الله، وهي تعي مأزقها الآن في الضفة الغربية وغزة. بمزيد من الجهد من المتوقع تغيير وضع الجبهة الشرقية وتفعيل الساحة الأردنية ليس بالضرورة لخوض حرب وإنما لوقف التنسيق الأمني وتحويل الطاقات التي يملكها النظام الأردني عن الساحة الإسرائيلية لصالح الساحة العربية. وتدرك إسرائيل أيضا أن كرة الثلج، أو كرة النار في هذه الحالة، إذا استمرت بالتدحرج فإنها ستصيبها مباشرة وبقوة داخل الأرض المحتلة عام 1948.

وما دامت العجلة تدور يبقى من المهم عدم العودة إلى ترهات التفاوض السابقة على الرغم من إمكانية الاستمرار في مناورات تستهلك الوقت. إسرائيل والغرب في مأزق شديد وهم يخشون من التصعيد لأسباب عدة على رأسها احتمال سقوط بعض الأنظمة العربية. من الناحية الدبلوماسية نحن لسنا بحاجة لأن نلهث وراء أحد. دعهم يلهثون وراءنا. ومن المفروض أن ينحصر الطرح الفلسطيني على الساحة الدولية من الآن فصاعدا في الإصرار على الانسحاب الإسرائيلي دون قيد أو شرط ودون اتفاقيات ومعاهدات سلام وصلح مع التأكيد على الحقوق الفلسطينية الكاملة.

ولكن حتى يتسنى للفلسطينيين الصمود المقاوم لا مفر من إحداث تغييرات جوهرية على الساحة الفلسطينية بخاصة فيما يتعلق بالأمر القيادي والذي يمكن أن يسبب لنا نوعا من الضيق والفوضى في حالة تحوله إلى قضية ملحة. سنواجه هذا الأمر حتما في يوم ما لأن سنة الحياة برهنت أن لا خلود لإنسان. بالإضافة، نحن بحاجة إلى إحداث تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية وتنظيمية حتى تستقيم أمورنا الداخلية ويصبح هناك انسجام بين الذين يختارون المقاومة وبين البنى الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. من الناحية الموضوعية، تصنع المقاومة أجواءها الخاصة والمتناسبة معها بحيث أنها تفرض قيادات سياسية جديدة وترتيبات اقتصادية واجتماعية وتنظيمية جديدة، لكن هذا يمكن أن يستهلك وقتا أطول من الوقت الذي يحتاجه جهد الإنسان المتعمد. والأمم الحية لا تترك أمورها للصدفة أو للتأقلم التاريخي التلقائي وإنما تعمد إلى التخطيط الواعي القائم على أسس علمية من أجل اختصار الجهد والزمن.

وحتى يكون الجهد الفلسطيني الشعبي في أوجه لا مفر من الدعم العربي والإسلامي. هنا لا أتحدث عن أموال كان لبعضها مفعول سيئ على الساحة وإنما عن الوقفة الاستراتيجية من مختلف النواحي. هل هذه الوقفة ممكنة الآن؟ بوجود أغلب الأنظمة العربية القائمة حاليا يبقى الأمل حلما. لكن التاريخ لا يقف ثابتا والشعوب العربية لا بد أن تقود عملية التغيير.